العلاقات بين دول الخليج العربية ودول المغرب العربي

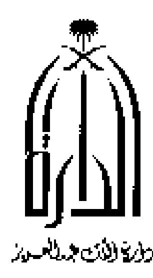
الواقع والمستقبل

بحوث المؤتمر العلمي الخليجي المغاربي الأول

المنعقد في تونس في المدة من ٢-٤ ربيع الآخر ١٤٢٤هـ/ ٢-٤ يونيه ٢٠٠٣م

بالتعاون بين دارة الملك عبدالعزيز ومؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات

١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م



الجذور التاريخية للهجرات العربية إلى المغرب العربي

د. سعيد بن فايز السعيد
كلية الآداب - جامعة الملك سعود
الرياض - المملكة العربية السعودية

تكاد الدراسات العلمية الحديثة تتفق فيما بينها على أن شبه الجزيرة العربية كانت المهد الأول للشعوب العربية القديمة، أي ما يسميها بعض الكتاب الشعوب السامية. وقد كان أسلاف الشعوب في عصور ما قبل التاريخ يعيشون في تجمعات محدودة، تعتمد على الصيد والجمع، ثم الرعي والزراعة البدائية على ضفاف الأودية والبحيرات في ظروف مناخية أيسر مما هي عليه اليوم، وعلى إثر التحولات المناخية والبيئية وانحسار الأمطار منذ ما يربو على ستة آلاف عام، بدأ تدفق سكان الجزيرة العربية على هيئة جماعات بشرية للبحث عن أماكن تتوافر فيها المقومات الطبيعية للحياة. ومن بين الهجرات البشرية التي انطلقت من الجزيرة العربية هجرة القبائل الكنعانية (الفينيقيين) إلى بلاد الشام حيث استوطنوا السواحل السورية، وفي فترة لاحقة انتقل قسم منهم في هجرة ثانية إلى مناطق المغرب العربي. وهناك أسسوا المستوطنات الحضارية، وتعايشوا مع المجتمعات المحلية، الأمر الذي أدى إلى نشوء فكر حضاري مشترك مهد الطريق لربط العناصر الثقافية في المشرق والمغرب ببعضها الآخر.

إن موضع الجذور التاريخية للهجرات العربية إلى المغرب العربي يرتبط ارتباطاً مباشراً ضمن إطار السياق التاريخي والحضاري العام للهجرات العربية القديمة ، وفي ضوء ذلك يجدر في البداية الإجابة على سؤال: من العرب؟ وأين كانت مواطنهم الأولى؟ وللإجابة عن الشق الأول من السؤال يمكن القول: إن العرب هم مجموعة من الشعوب والقبائل تجمع بينهم سمات لغوية وثقافية مشتركة ، وهذه المجموعة المتجانسة هم من أطلق عليهم

المؤرخون اسم (الساميين)[١]، أو (الجزريين)[٢]، والتسمية الأولى كما هو معروف أطلقها الباحث الألماني شلتزر في عام ١٧٨١م، وذلك قياساً على سلسلة نسب سام بن نوح في الإصحاح العاشر من سفر التكوين[٣]. أما التسمية الثانية، أي الجزريون[٤]، فقد تبناها بعض الباحثين، وقصدوا بها القبائل والشعوب التي كانت تستوطن الجزيرة العربية[٥]. وعلى الرغم من أن كلتا التسميتين وجدتا طريقهما إلى المصادر الأدبية، إلا أنه يجب التنويه إلى أنهما غير دقيقتين، فالأولى، أي (الساميون) فضلاً عن أنها بنيت على أسس غير ثابتة، فإنها تفضي إلى عزل الإنسان عن المكان ولا تربط الهوية بالتراث. بينما يشوب التسمية الثانية، أي الجزريون، عدم الدقة، إذ قد يفهم منها أن الإشارة هنا إلى شعوب وقبائل الجزيرة السورية. وعليه فإننا توخياً للدقة ورد الأسماء إلى أصولها الحقيقية نميل إلى تسمية تلك الأقوام والشعوب باسم (الشعوب العربية).

لقد كانت الشعوب العربية منذ ذلك الزمن تشترك في جملة من المورثات الحضارية لعل من أبرزها:

(١) ولفنسون، تاريخ اللغات السامية، ص ٩.

(٢) ثمة مسميات أخرى يستخدمها بعض الدارسين من مثل : الشعوب الأفروآسيوية، وشعوب البحر الأحمر، والشعوب الأفروعربية.

(٣) سفر التكوين: ٢١-٣١.

(٤) أول من أطلق هذه التسمية الباحث العراقي سامي سعيد الأحمد، وكان يقصد بها الجزيرة السورية، وهو الإقليم الذي عرف قديماً باسم أمورو، أي "الغرب" عند سكان بلاد الرافدين، انظر: الأحمد، المدخل إلى تاريخ اللغات الجزرية، ص ٣-١١.

(٥) سليمان، الأقوام الجزرية، ص ٨٠٩؛ الجبوري، القبائل العربية، ص ٢٩.

أولاً: تشابه شعوبها فيما بينها في العادات والتقاليد.

ثانياً: تشابه شعوبها في فكرها الديني، فثمة قواسم مشتركة كثيرة فيما بينها في المعتقدات، لعل من أبرزها ارتكاز عقيدتهم على تقديس الكواكب والأجرام السماوية، كالشمس والقمر والنجوم.

ثالثاً: اشتراكهم في لغة عربية واحدة، وهي نفسها ما يسميها بعضهم باسم (اللغة السامية الأم)، تلك اللغة التي تفرعت منها مجموعة من اللغات هي: الأكدية والإبلاوية، والكنعانية، والآرامية، والعبرية، والحبشية، والعربية الفصحى ... إلخ، وتجمع بين هذه اللغات جملة من الخصائص اللغوية المشتركة، لعل من أبرزها:

- اعتمادها على الأصوات الساكنة، وتشابه مخارج حروفها الشفوية، والأسنانية، واللثوية، واللهوية، والحلقية.
- اعتمادها على الجذور الثلاثية أكثر من اعتمادها على الجذور الثنائية والرباعية أو الخماسية.
- تميزها بأنها لغات اشتقاقية.
- تشابهها في الصيغ والتراكيب.
- تشابهها في الأعداد والضمائر وأسماء الموصول والإشارة وأدوات الربط والعطف والاستفهام.
- اتفاقها في استخدام جنسين فقط هما المذكر والمؤنث، واشتراكها في التعريف والتنكير.
- اتفاقها في صوغ أسماء الأعلام التي ترد إما مركبة مثل عبدالله وعبدالعزيز، أو مفردة مثل ناصر ومنصور وخالد وأحمد.

وهكذا فإن التشابهَ بين مجموعة الشعوب العربية في اللغة والمفهومات الفكرية والمظاهر الحضارية جعل من حقيقة انتمائهم إلى أرومة عربية واحدة غير قابلة للشك، الأمر الذي جعل كثيراً من الدارسين يجزمون بأن ثمة موطناً واحداً كان يجمع الشعوب العربية قبل أن تنطلق في هجرات متتابعة إلى حيث الأماكن التي تتوافر فيها مقومات أفضل للحياة. والبحث عن الموطن الأول للشعوب العربية يقودنا إلى الإجابة عن الشق الثاني من سؤال طرحناه أعلاه حول المهد الأول للشعوب العربية.

ثمة وجهات نظر متباينة فيما بينها طرحها المؤرخون حيال تحديد الموطن الأصلي للشعوب العربية، يمكن إجمالها على النحو الآتي:

- الرأي الأول اقترحه المؤرخ الأمريكي كلي Clay، ويرى أن بلاد أمورو، أي سوريا الحالية كانت الموطن الأول للشعوب العربية، معتمداً في ذلك على حقيقة التشابه اللغوي والفكري والحضاري بين الشعب البابلي في بلاد الرافدين وبين الشعوب المستوطنة في بلاد الشام(١)، وعلى ما يبدو أن (كلي) فاته أن التشابه في المظاهر الحضارية بين البابليين والسوريين القدماء مرده إلى أن كلا الشعبين ينحدران من عنصر واحد هو العنصر العربي، ومرجعيتهم الحضارية واحدة. إضافة إلى أن ما يؤخذ على هذه الفرضية أنها تناقش مسألة الموطن الأصلي للشعوب العربية في فترة زمنية متأخرة، أي في مطلع الألف الثاني قبل الميلاد مع العلم أنه من المرجح أن الهجرات العربية إلى بلاد الرافدين وبلاد الشام بدأت منذ الألف الخامس قبل الميلاد.

---

(١) علي، المفصل في تاريخ العرب، ج١، ص ٢٣٨.

- أما الرأي الثاني فقد تبناه الباحث الألماني ثيودور نولدكه، وأيده الباحث الروسي دياكنوف، الذي يعتقد أن الشعوب العربية القديمة استوطنت في بادئ أمرها القارة الأفريقية[١]، معتمداً في ذلك على علم السلالات البشرية والتشابه الجسدي بين البرابرة والأحباش والعرب، إضافة إلى حقيقة وجود تشابه في السمات الصوتية والصرفية والمعجمية بين اللغة العربية الأم وبين اللغة البربرية والحبشية[٢]، وعلى الرغم من أن هذا الطرح يعتمد على أسس علمية مقنعة، إلا أنه لم يجد القبول من كثير من الدارسين، فالتشابه بين الأجناس البشرية في شرق إفريقيا والجزيرة العربية مرده إلى الهجرات العربية المبكرة من جنوب بلاد العرب إلى الحبشة، فمن الثابت أن قبيلة (حبشت)، كانت قبيلة عربية جنوبية، هاجرت في القرن السادس قبل الميلاد إلى الحبشة[٣]، أما التشابه اللغوي بن العربية الأم واللغة البربرية فمن المرجح أنه يعود إلى الصلات القديمة بين الشعوب العربية والشعوب البربرية في شمال أفريقيا، وخصوصاً إذا ما أخذ المرء في الحسبان أن تاريخ حركة الاتصال بين المنطقتين قديم جداً، ويعود إلى العصور الحجرية[٤].

- ثمة رأي ثالث يزعم أصحابه أن أرمينيا[٥] كانت الموطن الأصلي للشعوب العربية، ويعتمد هذا الرأي على رواية توراتية جاءت في الإصحاح الثامن من سفر التكوين[٦] تفيد بأن سام بن نوح بعد أن رست به السفينة على

(١) أحمد، الهجرات العربية القديمة، ص ٤٩.

(٢) موسكاتي، مدخل إلى نحو اللغات السامية، ص ٣٥.

(٣) الشيبة، إسهام عرب الجنوب في قيام وتطور أكسوم، ص ١٧٠.

(4) Hassan, Holocene Enviromental Change , p. 18.

(5) Peters, The Home of Semites, p. 46.

(٦) سفر التكوين: ٤.

مرتفعات منابع دجلة والفرات بقي مع أبيه هناك فترة من الزمن، قبل أن يهاجر مع عقبه إلى كردستان العراق. ومما يُلحظ على هذا الرأي علاوة على أنه يرتكز على دليل أشبه ما يكون بالأسطورة، أنه أغفل الدليل الأثري، إذ لم يعثر في بلاد أرمينيا على أي شاهد أثري يشير إلى وجود الشعوب العربية القديمة في تلك المناطق خلال فترة الألف الرابع قبل الميلاد.

- الرأي الرابع حيال هذه المسألة اقترحه المؤرخ الإيطالي أقناتسيو قويدي الذي رأى في تشابه مسميات بعض النباتات والحيوانات في اللغة البابلية والآرامية واختلافها مع اللغة العربية الفصحى مسوغاً للقول : إن بلاد الرافدين الموطن الأول للشعوب العربية[1]. وعلى ما يبدو أن أقناتسيو قويدي وجه بحثه إلى عينة من الكلمات البابلية التي ليس لها شبيه باللغة العربية الفصحى، كي يزيد من قوة وجهة نظره، والحقيقة الثابتة أن الدراسات العلمية الحديثة[٢] أثبتت أن ما يربو على أربعين كلمة من الألفاظ الخاصة بالزراعة وأسماء الحيوان هي من الألفاظ المشتركة بين اللغات العربية القديمة (الأكدية بفرعيها البابلي والآشوري، والأوجاريتية، والآرامية، والعبرية، والحبشية، والعربية الفصحى).

إن الآراء آنفة الذكر وغيرها مما لا يتسع المجال لذكره، أضحت اليوم محط جدل واسع بين الدارسين، بل إن كثيراً منهم عارضها أو رفضها تماماً لعدم كفاية أدلتها مسوغاً لتحديد الموطن الأصلي للشعوب العربية القديمة،

---

(1) Guidi, Della sede Primitiva dei Popoli Semitici, p. 12.

(٢) بولشاكوف، دراسات في تاريخ الثقافة العربية، ص ٢٥.

ولكن على الرغم من ذلك ثمة رأي آخر وجد القبول والاستحسان من غالبية المختصين في تاريخ الشرق القديم يقول : إن الشعوب العربية القديمة كانت في بادئ أمرها تستوطن الجزيرة العربية. ولعل السبب في قبول هذا الرأي يعود إلى كونه يرتكز على أدلة تعتمد على جملة من المعطيات العلمية لعل من أبرزها :

- حقيقة قدم الاستيطان البشري في الجزيرة العربية، فالدراسات العلمية الحديثة تمكنت من الكشف عن مواقع أثرية تعود إلى العصر الحجري القديم الأسفل، حيث عثر في نجران والشويحطية على أدوات حجرية متنوعة يعود تاريخها إلى ما قبل مليون سنة(١).

- ما أثبتته الدراسات العلمية الحديثة من أن ثمة تحولات مناخية تدريجية وتغيرات طرأت على البيئة الطبيعية في الجزيرة العربية ، الأمر الذي أدى إلى نضوب تدريجي للبحيرات وتوقف جريان الأودية والشعاب بسبب انحسار الأمطار، مما جعل القبائل العربية تهاجر بشكل متتابع نحو الشمال، حيث الأنهار ووفرة الماء والكلأ ومقومات الحياة في بلاد الرافدين وبلاد الشام وفلسطين.

- تواصل الاستيطان البشري خلال عصور ما قبل التاريخ المتعاقبة في أرجاء متفرقة من الجزيرة العربية(٢).

(1) Whalen, A Lower Pleistocene Site Near Shuwayhitiya in Northern Saudi Arabia, p. 94; Whlen, Early Pleistocene Migrations into Saudi Arabia, pp. 69-73.

(٢) الأمين، العصور الحجرية في المملكة العربية السعودية، ص ١٠- ٣٥.

- ازدياد نسبة السكان في الجزيرة العربية خلال العصر الحجري الحديث، وهذا ما تؤكده كثرة المواقع العائدة إلى هذه الفترة في أرجاء متفرقة من جزيرة العرب(١).

وفي ضوء الاكتشافات الأثرية الحديثة يبدو أن الهجرات العربية القديمة من الجزيرة العربية بدأت بواكيرها منذ الألف السادس قبل الميلاد، فالشواهد الأثرية، وخصوصاً المنشآت المعمارية التي كشف النقاب عنها مؤخراً في وسط الجزيرة العربية تتشابه إلى حد كبير مع مثيلاتها في بلاد الشام وفلسطين(٢)، مما يرجح أن المهاجرين من جزيرة العرب تابعوا في مواطنهم الجديدة نمط عمارتهم الحجرية الذي اعتادوا عليه في مناطق استيطانهم الأولى في مناطق وسط جزيرة العرب وشرقها.

تتابعت من جراء التغيرات البيئية في وسط الجزيرة العربية وشرقها هجرات أقوام عربية أخرى نحو الشمال، وكان من أكبر تلك الهجرات التي أكدتها رواية المصادر التاريخية هجرة الشعب الأكدي(٣) خلال الألف الرابع قبل الميلاد، الذين انتهى بهم المطاف في بلاد الرافدين، وتمكنوا بزعامة ملكهم (سرجون) في فترة لاحقة من تأسيس أعظم إمبرطورية عرفها الشرق القديم، اتخذت من أكد عاصمة لها(٤).

---

(١) دللت الأبحاث والمسوحات الأثرية التي تقوم بها وكالة الآثار والمتاحف السعودية، على أن مناطق المملكة تحتوي على مئات من المواقع العائدة للعصور الحجرية، انظر: الأمين، العصور الحجرية في الجزيرة العربية، ص ٢٦-٣٢.

(٢) الغزي، التحول الاستيطاني، ص ٥٥.

(٣) بوترو، الشرق الأدنى الحضارات المبكرة، ص ٧٢.

(٤) السابق ، ص ١٠٩.

لحق بهم في بداية الألف الثالث قبل الميلاد الآشوريون الذين استطاعوا تأسيس دولة حملت اسمهم في شمال بلاد الرافدين، وأصبحت خلال الفترات التاريخية اللاحقة من أعظم دول الشرق القديم. وفي مطلع الألف الثالث هاجر الكنعانيون أيضاً من مواطنهم في الجزيرة العربية إلى بلاد الشام، واستوطنوا السواحل السورية.

لم يتوقف تدفق سيل الهجرات العربية القديمة إلى مناطق الهلال الخصيب، ففي حوالي عام ٢٥٠٠ ق. م. هاجر الأموريون، واستطاع قسم منهم خلال العصور اللاحقة تأسيس الدولة البابلية، بزعامة ملكهم العظيم (حمورابي) الذي يعود الفضل له في جمع أول تشريع قانوني عرفته البشرية في القرن الثامن عشر قبل الميلاد. وفي منتصف الألف الثاني قبل الميلاد هاجر الآراميون، واستقروا في سوريا، واستطاعوا مع مطلع الألف الأول قبل الميلاد تأسيس عدد من الدويلات هناك[١]، عرفت في المصادر الأدبية باسم الدويلات الآرامية. تبعهم بعد ذلك بحوالي ألف سنة الأنباطُ والتدمريون ثم الغساسنة والمناذرة.

إن الاستيعاب النظري لمعطيات الاكتشافات الأثرية المعاصرة ، والمتمثلة في رصد مئات من مواقع آثار العصور الحجرية والعصور التاريخية المبكرة في وسط الجزيرة العربية وشرقها تتكامل مع الوحدة اللغوية للشعوب العربية، وتعزز من أن كثيراً من الشعوب العربية القديمة كانت قبل نزوحها التدريجي إلى مناطق الهلال الخصيب تستوطن وسط جزيرة العرب وشرقها، من جانب

(١) فرزات، الأدب في التاريخ الآرامي، ص ١٣٧-١٤٠.

آخر فإن مضامين الشواهد التاريخية والأثرية لتلك الشعوب تؤكد بما لا يدع مجالاً للشك أن الشعوب العربية القديمة التي أجبرتها ظروف الحياة آنذاك على ترك أماكنها والهجرة إلى مناطق متفرقة في بلاد الشام وبلاد الرافدين لم تكن في مواطنها الجديدة ترضى فقط بمجرد العيش البدائي، لا بل إنها حسب ما تؤكده معطيات الشواهد التاريخية أبدت مشاركة فعالة في توجيه سير الأحداث التاريخية لمنطقة الشرق القديم.

ولكون موضوع هذه الورقة يركز على الجذور التاريخية للهجرات العربية إلى المغرب العربي، جدير بنا أن نوجه الحديث إلى مسألة الكنعانيين، وهم أنفسهم من أسمتهم المصادر اليونانية فيما بعد باسم الفينيقيين[١]، فقد ذكرنا آنفاً أنهم نزحوا من جزيرة العرب إلى مواطنهم الجديدة في بلاد الشام مع مطلع الألف الثالث قبل الميلاد، وهناك استوطن جزء منهم مناطق سوريا الداخلية، وفضل بعضهم الآخر الإقامة على السواحل اللبنانية، والسؤال الذي يتوق المرء إلى الإجابة عنه هو من أي مكان في جزيرة العرب نزح هؤلاء الفينيقيون؟

ثمة جملة من الشواهد التاريخية ترجح أن الفينيقيين كانوا قبل هجرتهم يتخذون من المناطق المطلة على سواحل الخليج العربي مواطن لهم، فحينما ينعم المرء النظر في الفكر الحضاري للفينيقيين بُعيد استيطانهم على السواحل اللبنانية يلفت انتباهه أن مقاييس حياة القبائل الصحراوية البدوية لا تنطبق عليهم، فهم يتمتعون بحس حضاري خاص[٢]، كيف لا والفضل يعود لهم في

(١) حدة، الهجرات العربية من الجزيرة العربية إلى الهلال الخصيب، ص ٢١.

(٢) كنتينو، الحضارة الفينيقية، ص ٣١.

اختراع أول أبجدية عرفتها البشرية، ذلك الاختراع الذي يعد أعظم هدية قدمتها الشعوب العربية للحضارة الإنسانية قاطبة. علاوة على ذلك فقد تميز الفينيقيون بقدرتهم ومعرفتهم لفن الملاحة وركوب البحر(١)، مما يرجح أن الفينيقيين نزحوا من مناطق ساحلية، ولعل ما يعزز أن الفينيقيين هاجروا من المناطق المطلة على شواطئ الخليج العربي ما ذكره المؤرخون الكلاسيكيون في معرض حديثهم عن الفينيقيين، فقد ذكر المؤرخ اليوناني (هيوردوت) أن الفينيقيين قالوا له أثناء زيارته لمدينة صور في عام ٤٥٠ قبل الميلاد: إنهم (أي الفينيقيون) نزحوا من ساحل البحر الأريتيري(٢) إلى ساحل البحر المتوسط(٣). كما أشار أيضاً الجغرافي والمؤرخ اليوناني (سترابون) إلى أن ثمة معابد ومدناً وجزرًا في منطقة الخليج تتشابه مع مثيلاتها على الساحل الفينيقي(٤). وفي معرض حديث المؤرخ الروماني (جوستين) عن الفينيقيين يذكر أنهم تركوا مواطنهم الأصلية بسبب زلزال أصابها، واستقروا في بادئ الأمر بالقرب من بحيرة سوريا (البحر الميت)، ثم ما لبثوا أن هاجروا إلى سواحل البحر المتوسط(٥). علاوة على ذلك يلحظ المرء أن ثمة مواضع جغرافية في الخليج العربي تسمى (صيدا، وصور، وجبيل)، والمعروف أن هذه المسميات تكررت أسماءً لمواضع الفينيقيين على السواحل اللبنانية ولا يزال بعضها يحمل الاسم نفسه حتى اليوم، الأمر الذي يرجح أن الفينيقيين أطلقوا

---

(1) Casson, Ships and Seamanships in the Ancient World, p. 136.

(٢) البحر الأريتيري تسمية كانت تطلق آنذاك على الخليج العربي.

(3) Herodote, The Histories, Bk. II. 44.

(4) Strabo, The Geography, Bk. XVI. Ch. III, 4.

(5) Moskati, The World of the Phoenicians, p. 5.

أسماء مدنهم القديمة في سواحل الخليج العربي على مدنهم الجديدة على السواحل اللبنانية(١).

إن المعطيات التاريخية ترجح أن القبائل الفينيقية تدفقت من مواطنها في شرق الجزيرة العربية وقرب سواحل الخليج العربي نحو الشمال، وهناك فضلت الاستقرار على السواحل السورية، واختيارهم للسواحل السورية موطناً جديداً لهم راجع فيما نعتقد لسببين رئيسين:

الأول: بسبب كثافة الاستيطان البشري في جوف سوريا، فهناك كان يقطن الإبلاويون(٢) في منطقة إبلا (تل مرديخ حالياً)، مما حال دون الفينيقيين من التوجه إلى تلك المناطق واستيطانها.

والثاني: إن صح ما ذكرناه سابقاً من أن الفينيقيين هاجروا في الأصل من سواحل الخليج العربي، فمن المرجح أن التشابه في الطبيعة الجغرافية بين موطنهم الأصلي في شرق الجزيرة العربية وبين مقرهم الجديد كان المسوغ الرئيس وراء اختيارهم السواحل السورية موطناً جديداً لهم.

وفي ضوء معطيات سير الأحداث التاريخية اللاحقة للشعب الفينيقي يبدو أن اختيارهم للبنان وسواحلها جاء في صالحهم، إذ تعد هذه المواقع آنذاك البوابة الرئيسة للاتصال بين آسيا وأفريقيا وأوروبا، وبعبارة أخرى كانت تمثل المدخل البحري للمصريين والأوروبيين (أي اليونانيين) إلى الممالك الشرقية في الجزيرة العربية وبلاد الرافدين وبلاد فارس، الأمر الذي دفع

(١) ابن صراي، السكان القدماء لشبه جزيرة عمان، ص ٥٧.

(2) Pettinato, Ebla, p.8.

الفينيقيين لإقامة اتصالات مباشرة مع دول الشرق القديم العظمى آنذاك، مثل: الدولة الآشورية، والدولة البابلية، والدولة المصرية، والدولة الفارسية، وساهم في ارتباطهم بعلاقات تجارية مع الممالك اليونانية والإمبراطورية الرومانية فيما بعد.

وبفضل المقومات الحضارية للشعب الفينيقي، وتمكنهم آنذاك من السيطرة التامة على مجريات تجارة العبور بين الجنوب والشمال، وبين الشرق والغرب، وما تميزوا به من قدرة فائقة في ركوب البحر، وجد الفينيقيون أنفسهم منذ القرن الثاني عشر قبل الميلاد بحاجة إلى توسيع نطاق أنشطتهم الاقتصادية خارج إطار حدود الشرق القديم.

ويذهب كثير من الدارسين اليوم إلى تفسير التوسع الفينيقي في بلدان المغرب العربي، وأجزاء من أوروبا إلى أنه يعود إلى ازدياد النشاط التجاري الفينيقي(١)، وهذا ما أدى إلى ضرورة فتح أسواق جديدة لتسويق المنتجات التجارية، وعلله بعضهم الآخر بأنه نتيجة لرغبة الفينيقيين آنذاك في البحث عن مكامن جديدة لمعاد الذهب والفضة والقصدير والنحاس التي تزايد الطلب عليها آنذاك(٢). وعلى الرغم من صحة هذه المسوغات إلا أن ثمة سببًا آخر يجب ألا يغيب عن الأذهان، فمعطيات أحداث نهاية القرن الثاني عشر ومطلع القرن الحادي عشر ق.م. التاريخية في منطقة الهلال الخصيب تنبئ أن المدن الفينيقية (صور، وصيدا، وجبيل، وأرواد) لم تكن تعيش آنذاك حياة آمنة تواكب ازدهارها الاقتصادي، ففي تلك الأثناء، أي في أواخر القرن الثاني عشر

(١) تسيركين، الحضارة الفينيقية في أسبانيا، ص ٢٥.
(٢) عصفور، المدن الفينيقية، ص ٥٣.

ق. م. تزايدت أطماع الدولة الآشورية في مناطق الفينيقيين، وقد تحدثت حوليات ملوكها عن الانتصارات العسكرية التي تحققت لهم على المدن الفينيقية[1]، وعلى ما يبدو أن الحالة الأمنية المتردية من جراء السياسة التوسعية الآشورية كانت أيضاً سبباً دفع الفينيقيين إلى البحث عن مناطق جديدة تحقق لهم الكسب الاقتصادي والحياة الآمنة، ما جعلهم يسعون إلى إنشاء المحطات التجارية والمدن على سواحل غرب البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي[2].

اندفع الفينيقيون مدعومين بمهارة فائقة في فن الملاحة البحرية إلى التوسع في سواحل غرب البحر الأبيض المتوسط، وحسب ما تشير إليه الشواهد الأثرية في المواقع الفينيقية على سواحل المغرب العربي[3]، من المرجح أن الفينيقيين وصلوا إلى تلك المناطق في مطلع القرن الحادي عشر ق. م. وهناك أسسوا محطات تجارية[4]، كانت تهدف في بادئ الأمر إلى فتح أسواق جديدة لبضائعهم التجارية ومقايضتها مع منتجات السكان المحليين، ومع مرور الوقت وتزايد هجرات الفينيقيين من مواطنهم في شرق المتوسط إلى بلدانهم الجديدة في غربه، سرعان ما تحولت تلك المحطات التجارية إلى مدن عامرة تعايش فيها السكان المحليون مع المهاجرين الجدد بكل وئام.

---

(1) Kessler, Die Assyrer, p. 121.

(٢) تسيركين، الحضارة الفينيقية في أسبانيا، ص ٢٧.

(٣) غانم، التوسع الفينيقي، ص ٦٨.

(٤) من أقدم المحطات التجارية هي: لكسوس (قديماً: تشمش، أي مدينة الشمس) على السواحل الغربية لبلاد المغرب العربي، وقادس في شبه جزيرة أيبيريا، وأوتيكا في الناحية الغربية من خليج تونس، وفي قرطاج شمال تونس اليوم.

ومن أشهر المدن الفينيقية في سواحل المغرب العربي القرية الحديثة (قرت حدشت)، و هي مدينة قرطاج في الجزء الشمالي من تونس اليوم، هذه المدينة التي أنشأها المهاجرون الفينيقيون في الربع الأخير من القرن التاسع قبل الميلاد، وتحديداً في عام ٨١٤ ف . م.[١] ومنذ ذلك التاريخ وقرطاج تؤدي دورها الفعال في استيعاب الثقافة العربية ونشرها ليس فقط في بلدان المغرب العربي، بل أيضاً في القارة الأوروبية[٢].

خلاصة القول : إن معطيات الاكتشافات الأثرية[٣]، ومضامين النقوش الفينيقية البونية[٤]، ورواية المصادر التاريخية اليونانية والرومانية تعزز من حقيقة أن سواحل المغرب العربي استقبلت منذ مطلع القرن الحادي عشر قبل الميلاد هجرات الشعوب العربية من شرق المتوسط، تلك الشعوب التي نقلت ثقافتها العربية معها إلى مواطنها الجديدة في بلدان المغرب العربي، فأضحت تلك الثقافة بكل فروعها اللغوية والاجتماعية والفنية والدينية سمة من سمات حضارة بلدان المغرب العربي، وفي الوقت نفسه صارت شاهداً على قدم الروابط الثقافية بين بلدان المغرب والمشرق الغربي، الأمر الذي يعني أن تاريخ الوحدة الثقافية بين مشرق ومغرب الوطن العربي ليست وليدة الفتوحات الإسلامية، بل إن جذورها تضرب في أعماق التاريخ بما يربو على ١٧٠٠ سنة قبل الإسلام، كان خلالها الفضاءان المغاربي والمشرقي ينهلان من معين

(١) عصفور، المدن الفينيقية، ص ٦٤.

(٢) تسيركين، الحضارة الفينيقية في أسبانيا، ص ٢٥٥.

(٣) وارمنجتون، العصر القرطاجي، ص ٤٧٣ . عصفور، المدن الفينيقية، ص ٩٩.

(4) Donner, kanaanaeische und aramaeische Inschriften, p. 2-166.

حضاري واحد، مما أسهم في تجانس الشخصية العربية في كلا المحيطين في الفكر والثقافة والعادات والتقاليد، ومهد السبيل لوحدة ثقافية ترسخت مفاهيمها بفضل الفتوحات الإسلامية، وها هي ذي مخرجاتها الحضارية في مشرق ومغرب الوطن العربي تتجسد ماثلة للعيان حتى وقتنا المعاصر.

المصادر والمراجع

١ - الأحمد، سامي، سعيد، المدخل إلى تاريخ اللغات الجزرية، اتحاد المؤرخين العرب (١٩٨١م)، ص ٣-١١.
٢ - أحمد، محمود، الهجرات العربية القديمة من شبه الجزيرة العربية وبلاد الرافدين والشام إلى مصر، دمشق ١٩٨٨م.
٣ - بوترو، جين، إتزارد أتو، نكنشتاين، آدم، الشرق الأدنى الحضارات المبكرة، ترجمة: عامر سليمان، الموصل ١٩٨٥م.
٤ - بولشاكوف، دراسات في تاريخ الثقافة العربية: القرون ٥-١٥، ترجمة: أيمن أبو شعر، موسكو ١٩٨٩م.
٥ - الجبوري، علي ياسين، القبائل العربية في بلاد الرافدين خلال الألف الأول قبل الميلاد، وقائع ندوة الوطن العربي النواة والإمدادات عبر التاريخ، (٢٠٠٠م)، ص ٢٩-٤٩.
٦ - حدة، حسن، الهجرات العربية من الجزيرة العربية إلى الهلال الخصيب، دمشق (د. ت).
٧ - سليمان، عامر، الأقوام الجزرية (العربية القديمة) في بلاد الرافدين حتى نهاية الألف الثالث قبل الميلاد، وقائع ندوة الوطن العربي النواة والإمدادات عبر التاريخ، (٢٠٠٠م)، ص ٩-٢٨.
٨ - علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج١، بيروت ١٩٦٧م.
٩ - الأمين، يوسف مختار، العصور الحجرية في المملكة العربية السعودية، أدوماتو ٨ (٢٠٠٢م)، ص ١٠- ٣٥.
١٠ - ابن صراي، حمد، السكان القدماء لشبه جزيرة عمان، شؤون اجتماعية ٤٣، (١٩٩٤م)، ص ٥٣-٦٧.

١١ - تسيركين، يولي بركوفيتش، الحضارة الفينيقية في أسبانيا، ترجمة: يوسف أبي فاضل، بيروت ١٩٨٧م.

١٢ - الشيبة، عبدالله، اسهام عرب الجنوب في قيام وتطور أكسوم، دراسات في تاريخ اليمن القديم، صنعاء ٢٠٠٠م، ص ١٦٨-١٨٨.

١٣ - عصفور، محمد أبو المحاسن، المدن الفينيقية، بيروت ١٩٨١م.

١٤ - غانم، محمد الصغي، التوسع الفينيقي في غرب البحر المتوسط، بيروت ١٩٨٢م.

١٥ - الغزي، التحول الاستيطاني في محافظة الخرج في العصور القديمة، الرياض ١٩٩٦م.

١٦ - فرزات، محمد حرب، الأدب في التاريخ الآرامي القديم، دراسات تاريخية ٢١-٢٢ (١٩٨٦م)، ص ١٣٥-١٦١.

١٧ - كنتينو، ج ، الحضارة الفينيقية، ترجمة: محمد عبدالهادي شعيرة، القاهرة ١٩٩٧م.

١٨ - موسكاتي، سباتينو، أولندورف، إدفرد، شيتلر، أنطون، سودن، فلفرام، مدخل إلى نحو اللغات السامية، ترجمة: مهدي المخزومي، عبدالجبار المطلبي، بيروت ١٩٩٣م.

١٩ - ولفنسون، أ، تاريخ اللغات السامية ، بيروت (د.ت).

٢٠ - وارمنجتون، ب. هـ. العصر القرطاجي، تاريخ إفريقيا العام، المجلد الثاني: حضارة إفريقيا القديمة، اليونسكو ١٩٨٥م، ص ٤٥٣- ٤٧٤.

1. Casson, L., Ships and Steamanships in the Ancient World, Princeton 1971.
2. Donner, H. und Röllig, W., Kanaanäische und aramäische Inschriften, Band 1-3, 2. Auflage, Wiesbaden 1966-69.
3. Guidi, I., Della sede Primitiva dei Popoli Semitici, Roma 1879.
4. Hassan, Fekri, Holocene Environmental Change and the Origins and Spread of Food Production in the Middle East, Adumatu 1, (2000), p. 7-28.
5. Herodote, The Histories, Trans. Goldley, A. D., London 1931.
6. Kessler, K., Die Assyrer, in: Der Alte Orient, Geschichte und Kultur des Vorderasiens, (ed.) Barthel Hrouda, München 1991.
7. Moskati, S., The World of the Phoenicians, London, 1968.
8. Peters, F., The home of Semites, JAOS 39 (1919), p. 46ff..

9. Pettinato, G., Ebla, Trans. by: C. F. Richardson, Baltimore and London 1991.

10. Strabo, The Geography, Trans. Goldley, A. D., London 1932.

11. Whalen, N., Siraj, J., Sindi, H., Pease, D., A Lower Pleistocene Site Near Shuwayhitiya in Northern Saudi Arabia, Atlal 10 (1986), p. 94-101.

12. Whlen, N., Davis, W., Pease, D., Early Pleistocene Migrations into Saudi Arabia, Atlal 12 (1989), p. 59-75.